المطرُ والغيثُ في القرآنِ والحديثِ

دراسةٌ بلاغيّةٌ أسلوبيّةٌ

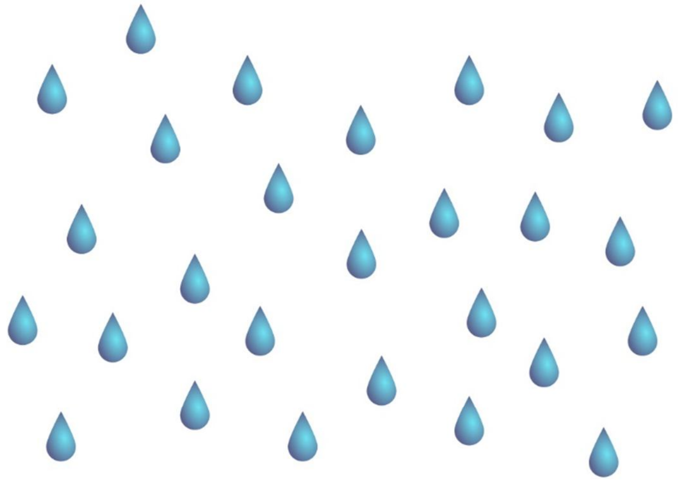

د. خليل محمّد أيّوب

شبكة الألوكة
www.alukah.net

المطرُ والغيثُ في القرآنِ والحديثِ

دراسةٌ بلاغيّةٌ أسلوبيّةٌ

الدّكتور

خليل محمّد أيّوب

المطرُ والغيثُ في القرآنِ والحديثِ
دراسةٌ بلاغيّةٌ أسلوبيّةٌ

ملخّصُ البحثِ:

يتناولُ هذا البحثُ بالدّراسة المُعَمَّقةِ استعمالَ لفظي **المطر والغيثِ في القرآن والحديث** مُبتغِياً من ذلك الكشفَ عن الخصائص **البلاغيّة والأسلوبيّة** لكلا الاستعمالين: القرآنيّ والنّبويّ.

ولبلوغِ هذا الهدفِ ابتدأ البحث بتمهيد عرَضَ لِمَا ذكرتْه كتبُ اللغةِ وغيرِها من فروقٍ دِلاليّة بين لفظي المطر والغيث، وذلك لتعيين ما هو لغويٌّ، وفصلِه عمّا هو خاصٌّ بالقرآن الكريم، ثمّ انتقل البحثُ إلى النّظر في استعمال القرآن والحديث لهذين اللفظين بُغيةَ الوقوف على أوجه الالتقاء والافتراق في التّعبير عنهما، وذلك من خلال استقراء مادّتهما، وتأمُّل لغتهما، والسّياقِ الذي جريا فيه، وانتهى البحث بخاتمةٍ ضُمِّنتْ أبرزَ النتائج التي توصلت إليها الدّراسةُ.

أولاً– توطئةٌ:

ما الفرقُ بين لفظي المطرِ والغيثِ في اللغة؟ وكيف استعملهما القرآنُ والحديث؟ وهل ثمَّةَ فرقٌ بين الاستعمالين أو أنّه ما من فرق؟ وما السّريرة وراء اختيار المطرِ تارةً والغيثِ تارةً أخرى؟

أسئلةٌ سنحاول الإجابة عنها في هذه الدّراسة، وحتى نجيب عنها على نحوٍ مرضٍ مقنعٍ يجب أن نقف ابتداءً على قول المعاجم وغيرِ المعاجم في شأن هذين اللفظين، ومن ثَمَّ نلج قلب العمل، لنلاحقَ لغة اللفظين في القرآن والحديث، وننظرَ في المعاني التي جريا في سياقتها.

ولكن قبل أن نسلكَ ذلك السّبيل يحسنُ أن ننبّهَ على أمرٍ مهمّ، وهو أنّ (القولَ بدِلالةٍ خاصّةٍ للكلمة القرآنية لا يعني تخطئة سائر الدّلالات المعجميّة، كما أنّ إيثار القرآن لصيغةٍ بعينها لا يعني تخطئة سواها من الصّيغ في فصحى العرب، بل يعني أنّنا نقدّر أنّ لهذا القرآن معجمَه الخاصّ، وبيانَه المعجزَ. فنقول: إنّ هذه الصّيغة أو الدّلالة قرآنيّة، ثمّ لا يُعترض علينا بأنّ العربية تعرف صيغاً ودِلالاتٍ أخرى للكلمة.)[1]

ثانياً: المطرُ والغيث في كتب اللغة وغيرِها:

١– المطرُ:

جاء في العين: المَطَرُ: الاسمُ (وهو الماءُ المنسكِبُ من السّحاب) والمَطْرُ: فِعلُهُ.... ومطَرَتْنا (السماء) تَمْطُرُهم مَطَراً، وأَمطَرَتْهُمُ (السّماء) وهو أَقْبَحُهُما. وأَمطَرهم اللهُ مَطَراً أو عذاباً.)[2]

ولعلّ في قول الخليل: (وهو أقبحهما) دلالةً على تفرقة ما بين (مطرَ) و(أمطرَ)، (فمطرَ) لها عنده – فيما أرى– دِلالتان: دِلالةٌ على الخير، ودِلالةٌ على العذاب. يقوّي القولَ بدِلالة الخير تفسيرُ الخليل الغيثَ في موضع آخر من العين بلفظ المطر[3]، ويقوّي القولَ بدِلالة العذاب قولُه: (أقبحهما) فالقبح كائنٌ في (مطرَ) و(أمطرَ)، ولكنّه في الثّانية أقوى وأعلى، وأمّا (أمطر) فلا دِلالة لها عنده إلّا على العذاب، يدلّ

---

[1] – التّفسير البيانيّ، د.عائشة عبد الرّحمن، ج2،ص٨. فرّق القرآن على سبيل المثال بين النّعمة والنّعيم، (فاطّرد مجيء (نعمة وأنعم ونعماء) في نعم الدّنيا، واطّرد كذلك مجيء (نعيم) خاصّاً بالآخرة. التّفسير البيانيّ، ج١، ص٢١٤. وانظر أيضاً الإعجاز البيانيّ للقرآن الدّكتور عائشة عبد الرّحمن ص ٢٣٥–٢٣٦.

[2] – العين، الخليل، ج٧، ص٤٢٥. وانظر: تهذيب اللّغة، الأزهريّ ج١٣، ص٣٤١–٣٤٢. المحيط في اللغة، الصّاحب بن عباد، ج٩، ص١٧١. لسان العرب، ابن منظور (م ط ر). تاج العروس، الزّبيديّ (م ط ر).

[3] – العين، ج٤، ص٤٤٠. مستدرك الجزء الرّابع مطبوع في نهاية الجزء الثّامن.

على ذلك قوله بعدَها: (وأمطرهم الله مطراً أو عذاباً) وكأنّي بصاحب العين ينظر في القرآن، يتأمّل كيف استعمل (أمطرَ)؟ أو كأنّي به ينظر إلى قول ابن عُيينة: (ما سمّى الله في القرآن مطراً إلّا عذاباً.)[٤]

وأمّا أبو عبيدةَ معمرُ بنُ المثنّى ففرّق بين (مَطرَ) و(أمطر)، بأن جعل الأولى للرّحمة والثّانية للعذاب، إذ قال في تعليقه على قول الله تعالى: ((فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ)) الأنفال:٣٢: (مجازه أنّ كلّ شيءٍ من العذابِ فهو أمطرت بالألف، وإنْ كان من الرّحمة فهو مَطرت.)[٥]

ولكنّ ابن حجر العسقلانيّ تعقّب كلامَ أبي عبيدةَ بقوله: (وفيه نظر)[٦] وهذا تعقُّب من ابن حجرٍ صحيحٌ؛ إذ لا دليل لتلك التّفرقة غير استعمال القرآن (أمطر) في العذاب دون (مطر)، وهذا لا ينهض دليلاً؛ لأنّه استعمال خاصٌّ بالقرآن وليس من الصّواب - والحال كذلك- أن نمدّه إلى غيره، وأن نجعله حاكماً على اللغة كلّها.

وإلى هذا الدّليل القرآنيّ الذي ركن إليه أبو عبيدةَ استند الفيروزآبادي في قصر أفعل على العذاب يقول رحمه الله: (وأَمْطَرَهُم اللّهُ: لا يُقالُ إلاَّ في العَذاب.)[٧] وذهب إلى ذلك ابن منظور[٨] والزّبيديّ[٩]. ولكنّ الرّاغب الأصفهاني كأنّه استضعف التفرقة بين (مَطَر) و(أمطَرَ) على نحو ما حكى أبو عبيدةَ؛ إذ صدّر هذه التفرقة بقوله: وقيل. يقول الرّاغب رحمه الله: (وقيل: إنّ (مَطَر) يقال في الخير، (وأمطرَ) في العذاب. قال تعالى: (**وَأَمْطَرْنا** عَلَيهِمْ مَطَراً فساءَ **مَطَرُ** الْمُنْذَرينَ.) الشعراء: ١٧٣ (**وَأَمْطَرْنا** عَلَيهِمْ **مَطَراً** فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمينَ.) الأعراف: ٨٤ (**وَأَمْطَرْنا** عَلَيْهِمْ حِجارَةً.) الحجر:٧٤ (**فَأَمْطِرْ** عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ.)الأنفال:٣٢)[١٠]

وذهب أناسٌ آخرون إلى عدم التّفرقة بين (مطر) و(أمطر)، وأنّهما بمعنًى واحدٍ. يقول ابن منظورٍ: (وأناسٌ يقولون: مَطَرتِ السّماءُ، وأمطَرَتْ بمَعْنًى.)[١١]

---

[٤] - البخاريّ، ج٤، ص١٧٠٤.

[٥] - مجاز القرآن، أبو عبيدة، ج١، ص٢٤٥.

[٦] - فتح الباري، ابن حجر، ج٨، ص٣٠٨.

[٧] - القاموس المحيط، الفيروزآبادي (م ط ر). تاج العروس (م ط ر).

[٨] - لسان العرب (م ط ر)

[٩] - تاج العروس (م ط ر).

[١٠] - المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص٤٧٠، (م ط ر)

[١١] - لسان العرب (غ ي ث). تاج العروس (غ ي ث)

٢– الغيثُ:

(الغَيْثُ: المطر[١٢]. [يقال]: غاثَهُمُ اللهُ، وأصابَهُمْ غَيْثٌ. والغَيْثُ: الكلأُ يَنْبُتُ من المطرِ، ويُجمع على الغُيُوث. والغِياثْ: ما أغَاثك اللهُ به.)[١٣] (وقيل إنّ الأَصْلَ: الْمَطَرُ، ثمَّ سمّيَ مَا ينْبتُ بِهِ غيثاً.)[١٤]

وواضح ممَّا ذكرته المعاجم أنّها ترادف بين لفظي الغيث والمطر، وأنّها لم تذكر فرقاً بينهما. ولكنَّ تأمُّل كلام هذه الكتب على المطر والغيث يفضي بنا إلى تفرقةٍ تقول: إنّ المطر أعمُّ من الغيث، إذ المطرُ يكون رحمةً، ويكون عذاباً، وأمّا الغيث فرحمةٌ خالصةٌ.

وإلى اختصاص الغيث بالرّحمة أشار الزّبيديّ بقوله: (وقيل: هو المَطَرُ الخَاصُّ بالخَيْرِ، الكَثِيرُ النَّافِعُ؛ لأَنّه يُغَاثُ به النّاسُ.)[١٥]

ولكنْ لا بدّ من التذكير بأنّ معنى العذاب الذي لحظته المعاجمُ في المطر ليس من استعمال العرب، وإنّما هو استعمال قرآنيٌّ، خاصّ بالقرآن؛ فالمطر حين يُطلق عند العرب يتمحّض للدّلالة على الخير والرّحمة.

وقد روت كتب اللغة والمعاجم خبراً ذا شأنٍ عن ذي الرُّمَّة حول المطرِ والغيثِ، ولكنّها لم تعلّق عليه، واكتفت بروايته عن راويه، ولو أنّها نظرت في هذا الخبر، ودقّقت في لغته لوقفت على تفرقةٍ مهمّة تكشف عن حقيقة استعمال العرب لفظي الغيث والمطر. وذلك الخبر رواه الأصمعيّ، يقول رحمه الله: (أَخْبَرَني عيسى بنُ عمرَ الثّقفي وأبو عَمرٍو ابنُ العَلاءِ، قال: سَمِعْتُ ذَا الرُّمَّةِ يقول: قاتل الله أَمَةَ بني فلانٍ ما أَفصَحَها! قلت: كيف كان **المَطَرُ** عِنْدَكُم؟ فقالت: **غِثْنا** ما شِئنا.)[١٦]

---

[١٢]– العين، ج٤، ص٤٤٠. وانظر: تهذيب اللغة، ج٨، ص١٧٧. المحيط في اللغة، الصّاحب بن عباد، ج٥، ص١٢٠. الصّحاح تاج اللغة، الجوهري (غ ي ث). المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ح٦، ص١٠. لسان العرب (غ ي ث). القاموس المحيط (غ ي ث). تاج العروس (غ ي ث).

[١٣]– العين،ج٤، ص٤٤٠. وانظر: تهذيب اللغة،ج٨، ص١٧٧. المحيط في اللغة، ج٥، ص١٢٠. الصّحاح تاج اللغة، (غ ي ث).

[١٤] – المحكم والمحيط الأعظم، ج٦، ص١٠.

[١٥]– تاج العروس (غ ي ث).

[١٦]– إصلاح المنطق، ابن السّكّيت، ج٢، ص٢٥٥. وانظر: تهذيب اللغة، ج٣، ص٢٤٠ . المحكم، ج٦، ص١٠. لسان العرب (غ ي ث) تاج العروس (غ ي ث)

فالمرأة في هذا الخبر تؤثر لفظ الغيث على لفظ المطر الذي نطق به ذو الرُّمَّة، فيستحسنُ منها ذلك أشدّ الاستحسان، ولا معنى لذلك الاستحسان سوى أنّ المطر يفترق عندهما عن الغيث، وأنّ الغيث أولى بالإطلاق في مثل حالهما.

والذي يلوح لي أنّ قوم المرأة كانوا في مسيس الحاجة إلى ما يروي ظمأهم، ويطفئُ غُلَّتهم، فناسب هذه الحالَ أن يطلَق لفظُ الغيث لا لفظُ المطر. ولكنّ ذلك لا يعني البتة أنّه لا يصحّ إطلاق لفظ المطر في مثل حال المرأة وذي الرُّمَّة، وإنّما المعنى أنّ ذلك الإطلاقٌ مغسول من الفصاحة والبلاغة؛ لأنه لا يصوّر لنا مشاعر الناس وأحاسيسهم، ولا ينقل لنا تطلّبهم الماء، ولا تلهّفهم لنزوله. وكيف يُتصّور أنّه لا يصحّ إطلاق المطر، والعربُ تسمّي (المطرَ غيثاً)[17] كما عندَ ابنِ عيينةَ؟ بل إنَّ ذا الرُّمَّة ذاتَه ابتدأ كلامه مستعملاً المطر دالّاً على الغيث.

ولعلّه بقي لنا أن نلحظ قرب لفظة الغيث من الغوث، وكأنّ الأصل وَفْقا للدّكتور حسن جبل (الغيث الماء، ويزكّيه أنّه هو الحياة... فيمكن أن ندّعي أنّ الأصل في الاستغاثة طلب الماء حقيقة، ومن هذا نقلت إلى طلب الرفق والرحمة، وهما مناسبان للماء؛ فكلاهما رقّة كما أنّ كليهما إبقاء على المستغيث ونجدةٌ له. وربّما يؤيّد هذا بقوله تعالى: ((وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)) الكهف:٢٩. هم يطلبون ماءً، فيؤتون بماء، لكنّه كالمهل.)[18]

---

[17] - البخاريّ، ج٤، ص١٧٠٤.

[18] - المعجم الاشتقاقيّ المؤصِّل لألفاظ القرآن الكريم، د. محمّد حسن جبل، ص١٥٥٧.

ثالثاً: المطرُ والغيثُ في القرآن الكريم:

١- المطرُ في القرآن:

ورد لفظ المطر في القرآن في تسع آياتٍ، سبعٌ منها كان مطرها(مطرَ حجارةٍ سواءٌ أكان تصريحاً أم فُهِم من السّياق)[19] وهذه هي الآيات:

((**وَأَمْطَرْنَا** عَلَيْهِم **مَّطَرًا** فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)) الأعراف:٨٤.

((وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ **فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً** مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)) الأنفال: ٣٢.

((فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً** مِّن سِجِّيلٍ)) الحجر: ٧٤.

((وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي **أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ** أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا)) الفرقان: ٤٠.

((**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ** الْمُنذَرِينَ)) الشعراء: ١٧٣.

((**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ** الْمُنذَرِينَ)) النمل: ٥٨.

وثنتان منها كان المطر فيهما (بمعناه العادي)[20]، وهما:

((... وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ **أَذًى مِّن مَّطَرٍ** أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا)) النساء: ١٠٢.

((فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا **هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا** بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)) الأحقاف: ٢٤.

ولعلّ ابنَ عيينة أوّلُ من تأمَل أسلوب آيات المطر، وأرجع نظره في بنيانها، فخرج على الناس بقولٍ شاعٍ فيهم، قال فيه: (ما سمّى اللهُ مطراً في القرآن إلّا عذاباً، وتسمّيه العرب الغيثَ كما قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا)[21] الشورى:٢٨. ولكن تُعُقِّبَ ذلك القولُ (بورود المطر بمعنى

---

[19] - القرآن والحديث، مقارنةٌ أسلوبيّة، د. إبراهيم عوض، ص٢٠٦.

[20] - القرآن والحديث، مقارنةٌ أسلوبيّة، ص٢٠٧.

[21] - البخاريّ، ج٤، ص١٧٠٤. وقد أحسن ابن عيينةَ في قوله هذا غاية الإحسان؛ إذ لم يعمّم صنيع القرآن على لغة العرب، ونبّه على أنّ للمطر في لغة العرب معنىً مختلفاً عمّا جاء في القرآن. وهذا الذي لحظه ابن عيينة ما كان ليهتدي إليه

الغيث في القرآن في قوله تعالى: (إنْ كانَ بكم أذى من مطرٍ) النساء: ١٠٢فالمراد به هنا الغيث قطعاً. ومعنى التأذّي به: البللُ الحاصل منه للثوب والرّجل، وغيرُ ذلك.)[22]

وتَعَقَّبَ القسطلانيُّ ذلك التّعقيب، وانتصر لقول ابن عيينة. يقول رحمه الله: (فإنّ المراد به المطرُ قطعًا، ونسبة الأذى إليه بالبلل والوحل الحاصل منه لا يخرجه عن كونه مطراً، وتسميِّه العربُ الغيث، وهو قوله تعالى: ((وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا)) وثبت قولُه: وهو الذي في الفرع، وسقطَ من أصله.)[23]

وقد أصاب القسطلانيُّ في ردّه ذلك التّعقيب على الرّغم من أنّ مطرَ هذه الآية - كما قال المتعقّبون - مطرُ غيث لا مطرُ عذاب وإهلاك؛ وذلك لأنّ الناحية التي كان القرآن ينظر من خلالها ليست غيثَ النّاس أو إهلاكهم، وإنّما ما نزلَ بالمقاتلين من أذى المطر، (وإن كان يسيراً)[24] فناسب ذلك أن يُؤتى بلفظ يناسب هذه الحال.

ولكن هل تصويب ردّ القسطلانيِّ على ابن حجرٍ معناه صحّةُ قول ابن عيينةَ؟ والجواب عن ذلك: **لا**.

فالذي يظهرُ لي أنّ ما يعكّر قول ابن عيينةَ ليس آيةَ النّساء التي تُعقِّب بها، وإنّما آيــةُ الأحقاف ((فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ))

ولا يردُّ هذا الذي أذهب إليه أن يقال: إنّ لفظ المطر في آية الأحقاف واردٌ في سياق العذاب؛ وذلك لأنّ الزاوية التي يجب أن ننظر من خلالها إلى استعمال لفظ المطر في هذه الآية ليس ما آل إليه حالُ الكفّار مع العارض الذي رأوه، وإنّما كيف نظروا إليه لحظةَ ظهورِه لهم؟ إذ استبشروا به خيراً، ورأوا فيه الرزقَ والنعيم.

لولا أنّه استقرى أسلوب القرآن وغير القرآن، وقارن بينهما، ثم خَلَصَ من ذلك إلى أنّ المطر في القرآن عذاب وأذى، وفي غير القرآن خير ورحمة.

[22] - فتح الباري، ابن حجر، ج٨، ص٣٠٨. وانظر: عمدة القاري، العينيّ، ج١٨، ص٢٤٨. والإتقان في علوم القرآن، السّيوطيّ، ج٢، ص١٦٤

[23] - إرشاد السّاري لشرح صحيح البخاريّ، القسطلانيّ، ج٧، ص١٣٥.

[24] - نظم الدّرر، برهان الدّين البِقاعيّ، ج٥، ص٣٨٣.

وقد رأيتُ الإمامَ الطبريَّ رحمه الله يفسّر المطرَ في آية الأحقاف بالغيث. يقول رحمه الله: ((قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا)) ظنّاً منهم برؤيتهم إيّاه أنّ غيثاً قد أتاهم يَحيَون به.)[1]

وما يؤكِّد صحّةَ هذا التّفسير النظرُ فيما أعقبَ قولَهم، في قولِه تعالى:(بل هو ما استعجلتم به...)، فقد أضربَ القرآنَ عن قولهم، وجاء بكلامٍ مستأنَف كشفَ لهم فيه عن أنّ ما توهّموه خيراً ليس غيرَ العذاب الذي كانوا يستعجلون به الرَّسولَ متهكِّمين ومستبعدين.

ثُمّ تأمل معي كيف ترتقي دِلالة المطر على الخير والرّحمة في هذه الآية بالبيان صُعُداً؛ فهي ترينا العذاب نازلاً بالقوم، وهم مقبلون على الحياة، وراغبون فيها؛ ذلك أنّهم استبشرَوا بالعارض خيراً، وفرحوا به، وما هي إلا سويعةٌ حتى تبدّلت حالُهم على نحوٍ صادمٍ مخيف، فإذا الفرح خوفٌ مطبقٌ، وموتٌ محدِقٌ، وإذا الخير شرّ يرميهم موتاً، فأصبحوا في ديارهم كأن لم يكونوا، وذلك مآلٌ بشع كريه ليس كمثله عندَ السّامع أن ينزلَ العذابُ من غير الإشارةِ إلى الاستغراق في الحياة والذوبان فيها.

أضف إلى كلّ ما سبق أنّ ما أهلك الكفار في آية الأحقاف لم يكنِ المطرَ، وإنّما الريح التي فيها عذابٌ أليمٌ، وإذا كان الأمر على هذا النحو فكيف يصحُّ أن يوصف المطرُ في آية الأحقاف بوصفٍ لم يكن آلةً في وجوده، ولا سبباً في وقوعه؟

وعلى ذلك نستطيع أن نقول: إنّ استعمال القرآن لفظ المطر دالّاً على العذاب والأذى استعمال غالبٌ، وليس بمطّردٍ.

ولكن قد يقال: لِم آثر القرآن في آية الأحقاف لفظ الغيث على لفظ المطر مع أنّ لفظ الغيث متمحِّضٌ للدّلالة على معاني الخير والرّحمة؟ والجواب عن ذلك أنّ لفظ الغيث في القرآن والحديث – كما سيأتي– لا يُؤتى به إلّا في حال اضطرار النّاس إليه، وشديد حاجتهم له، ولا اضطرارَ ولا احتياجَ في آية الأحقاف.

وأمّا لماذا كثر استعمالُ المطرِ مع العذاب في القرآن؟ فالذي يظهر لي أنّ ذلك مرجعُه إلى أنّ في المطر (انسكاباً أو انحداراً بقوةٍ أو سرعةً مع استرسالٍ)[2]؛ (فالطَّيرُ تَهْوِي في السّماء مُطَّراً يعني: مسرعةً.

---

[1] – جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبريّ، ج٢١، ص١٥٥.

[2] – المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم، ص٢٠٩٢.

مسرعةً. وجاءت الخَيلُ مُتَمَطِّرةً، [أي: مسرعةً] يَسبِقُ بعضُها بعضاً..)[1] وهذا الانسكاب بقوةٍ، وذاك النزول بسرعة ممّا يناسب العذاب، ويتّسق معه.

وبناءً على ذلك تكون كلُّ الآيات التي جاء فيها المطر دالّاً على العذاب ناظرةً إلى معنى الانسكاب وصفتِه، وأمّا آيةُ الأحقاف فناظرةٌ إلى شيءٍ آخرَ، إلى معنى الخير الناشئِ عن أثر المطر في الأرض.

وتأمّل معي في ضوء تلك السّريرة التي كانت وراء استعمال القرآنِ المطرَ في العذاب ذلك المشهدَ الرهيبَ الذي يرسمه إمطارُ الكفّار بحجارة لا عدّ لها ولا حصرَ، فهي كقَطْر المطر في الكثرة تهوي على أجسادهم بقوةٍ شديدةٍ وسرعةٍ كبيرةٍ، فتنزعُ أرواحَهم، وتجعلُهم كأن لم يغنَوا بالأمسِ، وتدمّر كلّ شيءٍ تدميراً، فلا منجى، ولا ملاذ،؛ إذ مطر الحجارة سيعمّ، ويطمّ، ويصيب كلّ مكانٍ.

٢– الغيثُ في القرآن:

وردَ لفظ الغيث في القرآن الكريم في أربع آيات، جاء في ثلاث منها اسماً، وفي الرابعة فعلاً مبنيّاً لغير فاعله، وفي كلٍّ جاء دالّاً على معنى الرّحمة، وحاملاً له، ومبشّراً به. وهذه هي آيات هذا اللفظ:

((إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ **وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ** وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)) لقمان: ٣٤.

((وَهُوَ الَّذِي **يُنَزِّلُ الْغَيْثَ** مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ))الشورى: ٢٨.

((اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ **غَيْثٍ** أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)) الحديد: ٢٠.

((يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ **يُغَاثُ** النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ)) يوسف: ٤٩.

وواضحٌ لمن يتأمّل هذه الآيات أنّ معنى الرحمة في الغيث ظاهرٌ ظهوراً لا خفاءَ فيه في آيات الشورى ويوسُفَ والحديدِ، ففي آية الشورى نجدُ قوله تعالى: (وينشر رحمته.) والغيثُ من الرّحمة، وكذلك نجد قولَه تعالى: (من بعد ما قنطوا) وهو قول يدلّ على عِظَم هذه الرّحمة، وأنّ النّفوس اشتاقت إليها، وطال انتظارها لها حتى أَيِسَتْ من بلوغها، وفي آية يوسفَ يقحطُ المطرُ سبعَ سنين، ثم يُغاثُ النّاسُ، من بعد طول انتظارٍ وشديد قحطٍ، وفي آية الحديد نلقى آثار رحمة الغيث ماثلةً في إنبات النبات،

---

[1] – العين، ج٧، ص٤٢٦. تهذيب اللغة، ج١٣، ص٣٤٢.

وأثره في نموه وتكاثره وهيَاجه، فقد مثّلت الآية لفناء الدّنيا وذهوب نعيمها بعد عظيم إقبالها على أهلها بزرع يزرعُه الزُّرَّاع، فيسيقه الحيا، فينبتُ، فيهيجُ، فيصفرُّ، فيكونُ حُطاماً.

وأمّا آية لقمان فمعنى الرّحمة وتطلُّب النّفوسِ والأجساد له ليس بواضح ذلك الوضوح، فإذا ما أعملنا العقل، وأدمنا التّأمّل طلباً لهذا الذي خفي وراء ظاهر الكلام فإنّا نجد أنّ الباعثَ على استخدام لفظِ الغيث في آية لقمان أنّها تكلمت على مفاتح الغيب الخمسة.

فعن سالم بْنِ عبد اللَّه عن أبيه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ **الْغَيْثَ** وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[1]

ولا يعظُم أمرُ الغيب في نفسٍ قَدْرَ عِظَمه عند من يتطلّب الغيث، ويتلهّف لنزوله من بعد طول جدبٍ وشديد قحط؛ إذ يطيل التفكير في شأنه، ويتشوق لعرفان زمن وقوعه، متى يأتي؟ وهل سيأتي أو لن يأتي. وتلك أحوال لا يناسبها غيرُ لفظ الغيث.

ويلوح لي باعثٌ آخرُ وراء إيثار الغيث على المطر في آية لقمان، وهو مناسبةُ المطلع للخاتمة (فلقمانُ في صدرها: ((**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ))، وفي آخرها: ((**وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ** وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ))[2] فإنزال الماء من السماء يناسبه لفظُ الغيث لا لفظ المطرِ؛ وذلك لدلالة الغيث وإنزال الماء في استعمال القرآن على معاني الرّحمة والخير[3]، بل لاطِّرادهما في الدّلالة على هذه المعاني. وهذه آيات إنزال الماء من السّماء تبيْنُ عن ذلك الاطِّراد:

((الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً **وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)) البقرة: ٢٢.

((وَهُوَ الَّذِي **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)) الأنعام:٩٩.

---

[1] – البخاري، ج٤، ص١٦٩٣، رقم٤٣٥١.

[2] – مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، السّيوطيّ، ص٥٩.

[3] – فَطِنَ إلى هذه الدّلالة أستاذي العلّامة الدّكتور إبراهيم عوض في كتابه الفذّ "القرآن والحديث، مقارنة أسلوبيّة"، ص٢٠٥، ٢٠٦. يقول حفظه الله: (أمّا المطرُ الذي يسقي النباتَ فإنّ القرآن يستخدم له كلمةَ "الماء" مثل ((وأنزل من السماء ماءً)) أو الغيث، مثل: ((وينزّل الغيث)).

((إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ **وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً** لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ)) الأنفال: ١١.

((**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)) الرعد: ١٧.

((اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ)) إبراهيم: ٣٢.

((وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ **فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)) الحجر: ٢٢.

((هُوَ الَّذِي **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)) النحل: ١٠.

((وَاللَّهُ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)) النحل: ٦٥.

((الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا **وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ)) طه:٥٣.

((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ))الحج: ٦٣.

((**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)) المؤمنون: ١٨.

((وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** طَهُورًا)) الفرقان:٤٨.

((أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ **وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ)) النمل: ٦٠.

((وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن **نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)) العنكبوت: ٦٣.

((وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا **وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) الروم: ٢٤.

((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)) فاطر:٢٧.

((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)) الزمر: ٢١.

((وَالَّذِي **نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ)) الزخرف: ١١.

((**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ)) ق: ٩.

ولو أنّ القرآن أتى بلفظ المطر في الخاتمة بدلاً من الغيث لَمَا كان ذلك مناسباً للمطلع؛ إذ هيئة السّورة ستكون عندئذ مبتدئةً بلفظ اطّرد استعماله في الخير، ومنتهيةً بلفظ غَلَبَ استعمالُه في ضدّ الخير؛ فالمطر في القرآن- كما ظهر- جاء دالّاً في الغالب على العذاب، ولم يُستعمل في الخير إلّا في آية الأحقاف.

رابعاً: المطرُ والغيثُ في الحديث النّبويِّ الشّريف:

إذا كانَ معنى العذاب غلبَ على لفظ المطرِ في القرآن الكريم فإنّ الحديث النّبويّ جرى في استعماله مجرى مغايراً؛ فقد استعمله مرات عديدة (بمعناه العادي)[1] الذي يدور حول معاني الخير الكثير والرّزق الوفير. من ذلك:

عن زيد بن خالد الجهنيّ، قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي إِثْرِ السَّمَاءِ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: (هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟) قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: قَالَ: (أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ. فَأَمَّا مَنْ قَالَ: **مُطِرْنَا** بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ: **مُطِرْنَا** بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ)[2]

وعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ **الْمَطَرِ** لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ.)[3]

وعن أبي هريرة أنّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (إِنَّ السَّنَةَ لَيْسَ بِأَنْ لَا يَكُونَ فِيهَا **مَطَرٌ**، وَلَكِنَّ السَّنَةَ أَنْ تُمْطِرَ **السَّمَاءُ**، وَلَا تُنْبِتَ الْأَرْضُ.)[4]

---

[1] - القرآن والحديث، مقارنة أسلوبيّة، ص٢٠٦.

[2] - البخاريّ، ج١، ص٢٩٠، رقْمُ ٨١٠. مسلم، ج١، ص٨٣-٨٤، رقْم٧١.

[3] - سنن التّرمذي، ج٣، ص١٤٧، رقم ٢٨٦٩. مسند أحمدَ، ج١٩، ص٣٣٤، رقْم ١٢٣٢٧.

فالمطر في الحديث الأوّل دالّ على الخير دِلالةً واضحةً، يبيّن ذلك تقييد النّبي صلّى الله عليه وسلّم الفعلَ (مُطرنا) بقوله: (بفضل الله ورحمته.)

وفي الحديث الثّاني يُمثّل النّبي صلّى الله عليه وسلّم لعِظَم الخير في أمّته أوّلِها وآخرها بعِظَم خير المطر أوّلِه وآخره. ولكن لا بدّ من التنبيه هنا على أنّه لا يصحّ أن يُفهم من تّمثيل النّبي صلّى الله عليه وسلّم (التّردد في فضل الأول على الآخر، فإنّ القرن الأول هم المفضلون على سائر القرون... وإنّما المراد منه نفعهم في بثّ الشّريعة والذبّ عن الحقيقة.)[5] أو لعلّ التّمثيل مبنيٌّ (على التّقريب لهم من صحابته.)[6]

وفي الحديث الثّالث يبيّن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم للنّاس المعنى الدّقيق للقحط؛ فليس القحط ألّا ينزل المطر، وإنّما القحط أن ينزل المطر، ثم لا يكون من بعد ذلك الخير الذي يرجوه الناس، والمرادُ من هذا الحديث: (نسبة الأشياء إلى خالقها وموجدها المنعم بها، فهو المعطي والمانع والخالق والرّازق، فالكلّ منه وإليه، فليس للمطر عمل في الإنبات، إنّما الإنبات بأمر الله، تُمْطِر ولا تُنْبِتُ، وتنبت ولا تمطر.)[7]

وثّمة أحاديثُ كثيرةٌ استعملت لفظ المطر دالّاً على الخير وسبباً له، ولكنّ لفظه ليس من لفظ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما من لفظ الرّاوي عنه كمثل هذا الحديث:

عَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَطُّ مُسْتَجْمِعًا ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِه، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ، وَكَانَ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِه، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، النَّاسُ إِذَا رَأَوْا الْغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيه الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عُرِفَتْ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةُ، فَقَالَ: " يَا عَائِشَةُ، مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيه عَذَابٌ؟ قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ، فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ **مُمْطِرُنَا**.)[8]

وهذه الأحاديث الكثيرة – وإن لم تكن ميداناً للدّراسة – تدلّ على كثرة استعمال لفظ المطر في الكلام البشريّ دالّاً على الخير وصانعاً له.

---

[4] – مسند أحمد، ج١٤، ص٢٠٢، رقْم٨٥١١. قال الشيخ شعيب في الحاشية: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[5] – الكاشف عن حقائق السّنن، الطّيبيّ، ج١٢، ص٣٩٦٨ .

[6] – تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، ص١٨١.

[7] – الشافي في شرح مسند الشافعي، ابن الأثير، ج٢، ص٣٥٨ .

[8] – البخاريّ،ج٣، ص١١٧٢، رقْم٤٥٥١.

و لم يستعمل لفظ المطر – فيما أعلم– في حديث النّبيّ مسبّباً لشيءٍ من الأذى إلّا في حديث واحد: فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (خَرَجَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَمْشُونَ، **فَأَصَابَهُمْ الْمَطَرُ**، فَدَخَلُوا فِي غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ– قَالَ– فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ادْعُوا اللَّهَ بِأَفْضَلِ عَمَلٍ عَمِلْتُمُوهُ. فَقَالَ: أَحَدُهُمْ اللَّهُمَّ....)[٩]

فالمطر قد أصاب ذلك النفرَ الكريم بالبلل الشّديد، واضطرهم لدخول الغار، فانحطّت الصخرة عليهم، ولاحظِ استعمال النّبي للفعل (أصاب) الذي يدلّ على نوعٍ من الأذى نزل بأولئك الرجال؛ إذ يصوّر فعلُ الإصابة ما نزل من مطر عليهم بسهام آذتهم أشدّ الإيذاء؛ وذلك بالنّظر إلى ما أصابهم من بللِ المطر، ثم ما آل إليه حالُهم من ضيقٍ وكرب شديدين بعد اللجوء إلى الغار.

وهذا الفعل (أصاب) (جاء في الخير والشّرّ قال تعالى: ((إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ...)) التوبة:٥٠ ((وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ)) النساء: ٧٣. فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ)) النور:٤٣....)) قال بعضهم: الإصابة في الخير اعتباراً بالصّوب، أي بالمطر، وفي الشّرّ اعتباراً بإصابة السّهم.)[١٠]

ولا يعكّر هذه الدّلالة التي تتسق مع معنى الأذى، وتدلّ عليه ورودُ رواية أخرى، وهي (أخذهم المطر)[١١]؛ إذ في الفعل (أخذهم) معنى الإحاطةِ بهم، والاستمكانِ منهم. ولذا اضطرهم المطرُ إلى أن يلجؤوا إلى الغار طلباً للسلامة والأمان، ولمّا آووا إليه نزل بهم ما هو أشدّ؛ إذ انسدّ فم الغار كما يقول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في رواية الأخذ: (بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَمْشُونَ **أَخَذَهُمْ الْمَطَرُ**، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ...)[١٢] والتعبير بالفم تعبيرٌ استعاريٌّ دقيقٌ جعل به النّبيّ الغارَ كائناً يلتهم الطعام، ويصيّره كأن لم يكن، في دِلالةٍ على نزول الهلاك التّامّ بأولئك النفر.

وليس من شكٍّ في أنّ الأذى الذي في الحديث من جنس الأذى الذي في قول الله تعالى: ((وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنتُم مَرْضَى)) فالنّبي صلّى الله عليه وسلّم هاهنا جرى في

---

[٩] – البخاري،ج٢، ص٧٧١، رقْمُ ٢١٠٢.

[١٠] – المفردات في غريب القرآن، ص٢٨٨، (ص و ب)

[١١] – البخاري،ج٢، ص٨٢١، رقم ٢٢٠٨. مسلم،ج٤، ص٢٠٩٩، رقم ٢٧٤٣.

[١٢] – البخاري،ج٢، ص٨٢١، رقم ٢٢٠٨. مسلم،ج٤، ص٢٠٩٩، رقم ٢٧٤٣.

اختياره مجرى القرآن في استعمال المطر مع الأذى، وكذلك سار على دربه في النظر إلى معنيي الانسكاب بقوة والنزول بسرعة اللذين كان القرآن ينظر إليهما، وهو يعبّر بلفظة المطر.

وأمّا الغيثُ فجرى الحديث النّبويّ في استعماله على طريقة القرآن في حصوله من بعد قنوط النّاس وطول انتظارهم له، وكذلك في دلالته على الخير والفعل له.

فعن أنسِ بن مالك رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ جُمُعَةٍ مِنْ بَابٍ كَانَ نَحْوَ دَارِ الْقَضَاءِ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمًا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكَتْ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ **يُغِيثُنَا**. فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ: ثُمَّ قَالَ: (اللَّهُمَّ **أَغِثْنَا** اللَّهُمَّ **أَغِثْنَا** اللَّهُمَّ **أَغِثْنَا**.)[١٣]

وعن أَبِي موسى، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ **الْغَيْثِ** الْكَثِيرِ، أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا، وَسَقَوْا، وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ.)[١٤]

ففي الحديث الأوّل يندفع الرّجل إلى مقاطعة النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم– وهو يخطب طالباً منه أن يستسقيَ اللهَ لهم، وفي الحديث الثّاني يمثّل النّبي صلّى الله عليه وسلّم لمن قَبِل برسالته، ومن كَفَر بها بالأرض الطّيّبة المعدن والأرضِ العقيمِ، فالأرض الطّيّبة قبلتِ الغيثَ، فنبت فيها الخير والعشب والكلأ الكثير، والأرضُ العقيم لا خير فيها، لم تمسك ماءً، ولم تنبت خيراً.

وإذا ما رحنا نتأمل استعمال النّبي صلّى الله عليه وسلّم ألفاظَ المطر والغيث في أحاديثه الشريفة فذلك يثير في وجهنا سؤالاً مهمّاً، وهو: لماذا آثر النّبي صلّى الله عليه وسلّم في الحديثين الأخيرين لفظَ الغيث على المطر؟ ولماذا آثر المطرَ على الغيث في الأحاديث التي سبقت هذين الحديثين: (**مُطرنا** بفضل الله ورحمته) و(مثل أمّتي مثل **المطر**) و (إنّ السّنة ليس بأن لا يكونَ فيها **مَطَرٌ**)؟

والجواب عن هذا السؤال هو أنّ لفظ الغيث يأتي في استعمال النّبي صلّى الله عليه وسلّم حيثُ تكون الحاجة للغيث ماسّةً، فيتطلّبه الناس ويرجُون نزولَه، فذلك هو ما دعا النّبي صلّى الله عليه وسلّم

---

[١٣] – البخاري، ج١، ص٣٤٤، رقم ٩٨٦.

[١٤]– البخاريّ، ج١، ص٤٢، رقم ٧٩. مسلم، ج٤، ص١٧٨٧- ١٧٨٨، رقمُ ٢٢٨٢.

لإيثار لفظ الغيث على المطر في الحديث الأوّل، بل هو الداعي لاستعمال الفعل (يغثنا) من قِبَلِ الرّجل الذي طلب دعاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ فهو ما قاطع النّبيّ، وما اندفع ذلك الاندفاع إلّا لشديد الحاجة إلى ما يغيث؛ فقد هلكت الأموال، وانقطعتِ السُّبل، وذلك أيضاً هو الدّاعي إلى اختيار الغيث في حديث: (مثلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلمِ كمثل الغيثِ الكثير.)

يقول الإمام الطّيبيّ رحمه الله تعالى معلّلاً اختيار الغيث في هذا الحديث: (والغيثُ: المطر. وإنّما اختير الغيثُ على سائر أسماء المطر ليُؤذنَ باضطرار الخلق إليه حينئذ، قال الله تعالى: ((هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا)) وقد كان النّاس في الزّمان الأول قبل المبعث، وهم على فتْرةٍ من الرسل، وقد امتحنوا بموت القلب ونضوب العلم، حتى أصابهم الله برحمةٍ من عنده، فأفاض عليهم سجال الوحي السماوي، فأشبهت حالُهم حالَ من توالت عليهم السّنون، وأخلفتهم المحامل، حتى تداركهم الله بلطفه، وأرخت عليهم السماء، غير أنّه كان حظ كلّ فريق من تلك الرحمة على ما ذكره من الأمثلة والنظائر، وإنّما ضرب المثل بالغيث للمشابهة التي بينه وبين العلم، فإنّ الغيثَ يحيي البلد الميّت، والعلمُ يحيي القلبَ الميّت.)[١٥]

وأمّا الأحاديث التي استُعمل فيها المطر دالّاً على الخير والنّعمة فلم يكن فيها اضطرار من الخلق إليه حتى يؤتى بلفظ الغيث؛ إذ دار موضوعها حول معنى الخير، وكيف يكون؟

ففي الحديث الأول مثّل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لِعظَم خيرِ الأمّة في أوّل أيّام الإسلام وفي آخر الزمان، وفي الحديث الثّاني دار الكلام النّبويّ حول الصّانع للمطر، فأرجعَ المؤمنون الإمطارَ إلى فضل الله ورحمته، وأرجع الكفار ذلك إلى غير الله، وفي الحديث الثّالث تبيينٌ للنّاس أنّ خير المطر ليس بكائنٍ في نزوله، (خلافًا للعرب فيما كانوا يذهبون إليه من نسبة النّبات والخصب إلى المطر.)[١٦] وإنّما كائن في تفضّل الله على عباده ومنِّه عليهم. فناسب كلَّ هذه الأحوالِ أن يُؤتى بلفظ المطر، وليس بلفظ الغيث.

---

[١٥]- الكاشف عن حقائق السّنن، ج٢، ص٦١٦.

[١٦] - الشافي في شرح مسند الشافعي، ج٢، ص٣٥٨.

خامساً: خاتمة:

ونخلص من كلّ ما مضى درسُه في هذا البحث إلى خمس نتائجَ، وهذه النتائجُ هي ما يلي:

١- كشفت الدّراسة عن أنّ معنى العذاب الذي لحظته المعاجمُ في المطر ليس من استعمال العرب، وإنّما هو استعمالٌ خاصٌّ بالقرآن؛ فالمطر حين يُطلَق عند العرب يتمحّض للدِّلالة على الخير والرّحمة.

٢- وجدت الدّراسة أنّ العرب قد تطلق لفظ المطر، وهي تريد الغيثَ، لكنّ هذا الإطلاق لا بلاغة فيه، ولا براعةَ؛ لأنّه لا يستطيع أن يصوِّر لنا -كما يصوّر الغيث- مشاعرَ النّاس وأحاسيسهم، ولا ينقل لنا تطلّبهم الماءَ، ولا تلهّفهم لنزوله.

٣- كشفتِ الدّراسة عن أنّ استعمال القرآن المطر في العذاب استعمال غالب وليس بمطّرد؛ فالمطر في آية الأحقاف (قالوا: هذا عارض ممطرنا) مستعملٌ في معنى الخير؛ لأنّ الزاوية التي يجب أن ننظر من خلالها إلى استعمال لفظ المطر في هذه الآية ليس ما آل إليه حالُ الكفّار مع العارض الذي رأوه، وإنّما كيف نظروا إليه لحظة ظهوره لهم؟ وكذلك علّلتِ الدّراسةُ استعمال القرآن المطرَ في العذاب، فأرجعتْه إلى ما في لفظ المطر من دِلالةٍ على الانسكاب بقوةٍ أو الانحدار بسرعة، وهذا وذاك مما يناسب العذاب، ويتّسق معه. وأمّا الغيث وإنزال الماء من السّماء فوجدتِ الدراسة أنّهما لم يستعملا في القرآن لغير الدّلالة على الرّحمة والخير والنّعمة.

٤- ظهر للدّارسة أنّ الحديث النّبوي جرى في استعمال لفظ المطر مجرى مغايراً للقرآن؛ إذ غلب عليه معنى الخير، ولم يُستعمل سبباً للأذى إلّا في حديثٍ واحدٍ، وظهر لها أنّ القرآن والحديث لم يأتيا بلفظ الغيث إلّا في حال اضطرار النّاس إليه وشديد حاجتهم له.

٥- بيّنتِ الدّراسة من خلال التّحليل البلاغي الأسلوبيّ مطابقةَ المقال لما يقتضيه الحالُ في استعمال القرآن والحديث لفظي المطر والغيث؛ فلا عدولَ عن لفظٍ إلى آخرَ إلا لداعٍ معنويٍّ يدعو إلى ذلك العدول.

المصادر:

١- القرآن الكريم

٢- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدّين السيوطيّ، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة العامّة للكتاب، ١٩٧٤م.

٣- إرشاد السّاري لشرح صحيح البخاريّ، أحمد بن محمّد القسطلانيّ، المطبعة الأميريّة، بولاق، مصر، ط٦، ١٣٠٥.

٤- إصلاح المنطق، يعقوب بن السّكّيت، تح: أحمد محمد شاكر، وعبد السّلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٤.

٥- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، الدّكتور عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة ط٣.

٦- تاج العروس، مرتضى الزّبيديّ، مجموعة من المحقّقين، سلسلة التّراث العربيّ، الكويت.

٧- تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبةَ الدّينوري، المكتب الإسلاميّ، مؤسّسة الإشراق، ط٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٨- التّفسير البيانيّ للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرّحمن، دار المعارف، القاهرة، ط٧.

٩- تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهريّ، تح: عبد السّلام هارون، وزملاؤه، الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة.

١٠- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبريِّ، تحقيق: الدّكتور عبد المحسن التّركي، دار هجر، السّعودية، ط١، ١٤٢٢ه، ٢٠٠١م.

١١- الجامع الصّحيح، محمّد بن إسماعيل البخاريّ، تح: د. مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٩٨٧.

١٢- الشّافي في شرح مسند الشّافعي، مجد الدّين بن الأثير، تح: أحمد بن سليمان، يَاسر بن إبراهيم، مكتبة الرُّشْد، الرياض، السّعودية، ط١، ١٤٢٦ هـ- ٢٠٠٥ م

١٣- الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهريّ، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧.

١٤- صحيح سنن التّرمذي، محمّد بن عيسى التّرمذي، حكم على أحاديثه محمد ناصر الدّين الألبانيّ، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ٢٠٠٠م.

١٥- صحيح مسلم، مسلم بن الحجَّاج، تح: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت.

١٦- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدّين العينيّ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٧- العين، الخليل بن أحمد، تح: د. مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائيّ، د. ط، د.ت.

١٨- فتح الباريّ شرح صحيح البخاريّ، ابن حجر العسقلاني، تصحيح محبّ الدّين الخطيب، وعليه تعليقات ابن باز، خرّج أحاديثه محمّد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩ه.

١٩- القاموس المحيط، مجد الدين الفيروزآبادى، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرّسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرّسالة، بيروت.

٢٠- القرآن والحديث، مقارنة أسلوبيّة، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.

٢١- الكاشف عن حقائق السنن، شرف الدّين الطيبيّ، نشر عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٩٩٧.

٢٢- لسان العرب، ابن منظور، تح: عبد الله الكبير، وزميلاه، دار المعارف، القاهرة.

٢٣- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تح: فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت.

٢٤- المحكم والمحيط الأعظم، علي بن سيده، تح: عبد الستار فرّاج وآخرون، معهد المخطوطات، ط١، ١٩٧٢.

٢٥- المحيط في اللغة، الصّاحب بن عبّاد، تح: محمّد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢٦- مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع - بحث في العلاقات بين مطالع سور القرآن وخواتيمها، جلال الدين السيوطي، قرأه وتمَّمه: د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، مكتبة دار المنهاج، الرياض، ط١، ١٤٢٦ هـ.

٢٧- مسند أحمد، أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرناؤوط، وآخرون، مؤسّسة الرسالة، ط١، 1٢٠٠م.

٢٨- المعجم الاشتقاقيّ المؤصِّل لألفاظ القرآن الكريم، الدكتور محمّد حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠١١.

٢٩- المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمّد، المشهور بالرّاغب الأصفهانيّ، تح: محمّد سيّد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

٣٠- نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، برهان الدّين البقاعيّ، المكتب الإسلاميّ، القاهرة، د. ط، د.ت.